

وسطية الإسلام بين العقل والوحي

أ. علي لخضاري

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان
الجزائر

مقدمة:

لقد اكتسب المنهج الاسلامي بحق الوسطية والاعتدال، فحاء رسالته رحمة وبشري للناس أجمعين قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٧) (١). فتمثلت هذه البشرية وهذه الرحمة الإستقامة في هذا المنهج وظهرت حقيقتها هي الإعتدال والتوسط في الأمور، بحيث لا إفراط ولا تفريط، وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة التي إرتكز عليها المنهج الإسلامي في دقة وموضوعية وكانت إحدى المقومات التي عززته ودعمته وقوت بنيانه، يقول في الإنفاق لا تبخل كمن يضع يده في عنقه لا يستطيع بسطها ولا قبضها ولا تبذر المال في بسطها بالعطاء (٢) قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٣). ثم يقول الله تعالى لقد فضلناكم بأن جعلناكم أمة خيارا عدولا، أي أنهم الوسط في الدين، فلا هم مغالون غلو النصارى في الترهيب، ولا هم أهل تقصير كاليهود، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (٤) وقد أشارت سورة الفاتحة الى هذه المعاني في قوله: ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٥) عن النصارى، وقوله: ﴿ عَنِّي ﴾ أَلْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ ﴿ عن اليهود ووصف طريق الملائكة والنبين والصدقين ﴿ أَلصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٦) (٥)، وقد تأتي فضيلة بين رذيلتين كالشجاعة بين التهور والجبن والكرم، وبين البخل والتبذير والاسراف، ولهذا وصف المنهج الإسلامي بالوسطية ووصفت أمة الاسلام بأنها أمة وسطا. فما ذا نعني بهذه الوسطية؟ جاء في لسان العرب (٦) قال الشاعر:

إِذَا رَحَلْتُ فَأَجْعَلُونِي وَسَطًا إني كَيْسْرٌ لَا أُطِيقُ الْعَدَا

أي أ جعلوني وسطا لكم ترفقون بي وتحفظونني، والوسط بالتحريك : إسم لما بين طرفي الشيء، وكقولك قبضت وسط الحبل وكسرت وسط الرمح، وجلست وسط الدار، حتى قيل يرتعي وسطا: أي أن الحيوان يرتعي وسط المرعى، وقد تأتي على أوجه ومقاصد كثيرة جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغُ اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ ﴾⁽⁷⁾. أيعلى شك من دينه فهو على طرف من دينه أو غير متمكن من التوسط أو الإستقامة: وهي ما تعني الإتياع الحسن للمنهج من معرفة وفهم وتطبيق، وأوسط الشيء أعدل وأفضله قال الراجز: ذا ركبت فاجعلاني وسطا، أي في مكان وسط، أي مكنوني وسط ظهر الدابة .

ولهذا نحاول البسط في إحدى مظاهر وصور هذه الوسطية. التي تعددت ألوانها واختلفت صورها كالتبشير في الدعوى والتيسير في الفتوى، كالتجديد في الآليات والمحافظة على الغايات، والابتعاد عن الجمود والتقليد والانفتاح بالإجتهد والتجديد، والإستفادة من القديم النافع والانتفاع من الجديد الصالح، والحفاظ على الخصوصية الإسلامية والهوية العربية منفتحا على الحضارات دون ذوبان، مرتبطا بالزمان والمكان لتغير الأحوال والمستجدات وفهمها بروح العصر ومقتضيات العلم والدين، الى غير ذلك مما نراه وأولها اهتماما وضرورة قامت عليها الشريعة الإسلامية السمحة .الوسطية بين العقل والوحي .

العقل والوحي:

إن المتأمل في حقيقة الإنسان وفي ما خلق الله تعالى في الكون، يجد أن الله خلق كل شيء على حقيقة قدرته وعظمته، فلما خلق الله الإنسان وضع له أسباب الحياة والحركة بين المخلوقات في الكون، بحيث أهله بقدرات وإمكانيات كالحواس والضمير والعقل ومنحه الإرادة والاختيار وما يجب أن يتخذ من أسباب التي تساعد على التكيف مع الشرائع (الأديان)،

لكن هذه القدرات من حواس وضمير وعقل لم تكن كافية في أن تمنح للإنسانية الإستقرار والإعتدال والتوازن في ما يتعلق بشؤون في الدنيا والآخرة، ولكن مع قوة هذه القدرات التي رزق الله بها الإنسان، إلا أنه لا يزال قاصر وعاجز أمام نوازع الإنسان المختلفة، من شهوات وأهواء وأغراض مختلفة وشؤون متعددة، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، حتى يستطيع الإنسانية أن يكمل هذا

القصور ويعوض هذا العجز فيعتدل على طريق الإستقامة ويتهياً لتبليغ الرسالات السماوية، وتحقق خلافتة في الارض، وعندئذ إحتكت العقول بالأديان وسارت على الفطرة الإنسانية السليمة، فكانت الأمة الوسط في إعتدالها وتوازنها. يقول الشيخ محمد الغزالي⁽⁸⁾ ((ومن روح القرآن والشرر المنقذ من احتكاكه بالعقل، ومن رونق الفطرة الساري في تعاليمه... قام العالم الاسلامي الكبير الذي وصفناه بالعالم الأول... وظل يقود الإنسانية...)).

هذا في الوقت الذي تهمل الأديان قيمة العقل وتنفي ضرورته، يأتي الإسلام فيعتمد عليه في قضية تثبيت العقيدة الإسلامية في الارض، فيرتقى المنهج الإسلامي عبر تفاعل الدين مع العقل، فينهض المجتمع الاسلامي، ويصبح أفضل هذه المجتمعات سلوكاً وأخلاقاً وقيم إنسانية عالية، ومن هنا تتضح علاقة الوحي بالعقل بأنها علاقة بناء وتكامل اقتضتها حياة الإنسان ونشأة الكون التي تستمد قوتها وامتداد حياتها بالإيمان بهذه الشرائع السماوية، لأنها إيمان بالله وبعلمه وقدرته، ثم التصديق بما جاءت به رسله من رسالات. يقول الشيخ "محمد عبده"⁽⁹⁾ ((أن العقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة، وأن النقل ينبوع له فيما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفروض العبادات وهيئاتها، وأن العقل إن لم يستقل وحده في ادراك ما لا بد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة في الاعتقاد بوجود الله)).

يتكلم الشيخ عن أهم قضايا تتصل بين الوحي والعقل، إذ لولا العقل لما وصل الانسان الى اليقين في قضية الإيمان بالله وبوجوده، ولولا العقل لما أدرك علم الله وقدرته ولما صدق رسله وآمن بهم، وأيقنت نفسه أنها من عند الواحد الأحد الفرد الصمد . ثم يشير الى قضية حظ الإسلام للعقل على التدبر والتفكير في ملكوت السماوات والأرض بأليات كثيرة منها التحليل والقياس والاستنتاج والتجريب، وقد نشير الى بعض صور التي تشير الى قضية التفكير وربطها بقضايا كبرى تتصل بالحياة والمماتة وتدل على قدرته وعظمته . قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾⁽¹⁰⁾ عند ما تكلم للكفار المكذبين بمحمد عليه الصلاة والسلام أي لتعقلوا وتفهموا قدرة الله، فكما أحيا الله هذا بعد موته، فهو قادر أيضا على إحياء الموتى بعد مماتهم وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾⁽¹¹⁾ وهو يشير الى عجائب

خلقه للتفكر فيها حتى يصل الإنسان الى عبر وعضات لقوم يتفكرون ويعتبرون ويعلم أن القدرة التي أبدعت ذلك، هي القدرة التي لا يتعذر عليها إحياء من هلك وإعادة من فني، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤) ﴿١٢﴾ عند ما يتكلم عن قطع الأرض المتقاربات وتختلف في الجودة والرداءة، ومع اختلاف الأرض في الملوحة والعدوبة، إلا أنها تختلف في زروعها ونخيلها وأثمارها، ويسقى من ماء واحد وتختلف في الطعم منها الحلو والحامض، وأن لهذه العجائب والتفكر فيها لدليل واضح لقوم يعقلون عظمة وقدرة الخالق. والاشارة الى التفكر والتدبر حتى يزيد تمسكا وتعظيما لله ويزيد علمه ويقينه به، فتصفوا سريره وتركوا نفسه، ومع ذلك تبقى هناك أمور يحتاج الإنسان لإستكشافها وإدراك أسرارها، كعلم الغيب وأحوال الآخرة والفروض وكيفية الموت والحياة والرزق والتصرف في شؤون الكون الكبيرة وقضاياها، فيتدخل الوحي فيتممها ويكمل النقص ويعوض العجز، وبذلك تكتمل الحياة ويجمع الله بمها مطالب الدنيا والآخرة . فتتحقق شريعة الله في الأرض ويستقر قرارها ويستقيم منهجها، وبالتالي لا تكون هناك حجة للإنسان على الله، لأنه بعث الرسل مبين ومفصلين لهذا الدين قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) ﴿١٣﴾ ولولا العقل والإرادة لما كلف الله الإنسان بحمل هذه الرسالة، لأن الله أودع فيه وهياً له القدرة على حملها ومكنه من قبولها واختيارها فبدلك إستقرت هذه الشريعة في نفوس الإنسان لأنه كان ظلوما جهولا، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) ﴿١٤﴾ في شريعة في الارض تسعى لخدمة الإنسانية بحيث يخلق الله هذه المدارك الحسية والعقلية، ولما إحتار هذا المخلوق لظلمه وجهله وسط فتن الدنيا ومغرياتهما من شهوات ولذات وأهواء، يأتيه الوحي فيخرجه من الظلمات الى النور فيعتدل وينظر الى الأمور بحكمة، فلا تغره الشهوة ولا تحدعه مغريات الحياة، ولا يبالغ في أمور الدنيا عن جهل أو عناد أو كبرياء وإنما ينظر للأمر بعين العقل تفكرا وتدبرا، وبعين الدين تقصيا وبحثا عن الحق المشروع من رب العالمين، وبالتالي حقت إرادة الله في الارض، لأنه المخلوق الذي كرمه الله ومكنه وأعطاه الحرية والإرادة ليختار ويميز الخبيث من الطيب فينتقل من آلة جامدة ميتة الى إنسان له الإرادة

والإختيار التي هي أساس التكليف بهذه الرسالة، يقول "عباس محمود العقاد⁽¹⁴⁾" ((فإذا كانت الإرادة المطلقة هي إرادة الله، فخلق الناس مكلفين بغير إرادة لهم شيء غير معقول وغير مقبول، لأن سقوط التكليف لا معنى له في هذه الحالة إلا أن يخلق الناس جميعا متشابهين متمثلين متساوين في العمل الصالح الذي يساقون اليه، كما تساق الآلات، فلا فضل إذن للعقل على غير العاقل، ولا تمييز للإنسان على الجماد المجرد من الحس فضلا عن الحيوان، فإذا وجب تكليف الإنسان فالعقل الإنساني لا يوجبه الا كما ينبغي ان يوجب على حالة واحدة لا سواها وهي حالة الإرادة المخلوقة يودعها فيه الخالق كما ينبغي أن تودع، وهي لا ينبغي أن تودع إلا على هذا الفرض الذي يدعو اليه القرآن))

يريد ان يقول أن هناك حرية وإرادة لها ضوابطها وخصوصياتها حولها الله للإنسان، ثم رزقه بالعقل، فلما هيأه لذلك، أوجب عليه التكليف (الدين) حتى يتفاضل بالعمل الصالح، ويميز بإنسانيته التي تنفرد بالأحاسيس وتختلف عن الحيوان والجماد في ذلك، وهي تلك الإرادة التي جاء بها القرآن، أي (الوحي) .

ولهذا فإن التكليف يوجب على الإنسان لأنه مهياً لأسباب ذلك بالعقل والإرادة، ولهذا رفع التكليف عن الذي لا إرادة له ولا عقل له، قال عليه الصلاة والسلام: ((رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم))⁽¹⁵⁾ . وهذا الكلام يؤسس قضية التكليف بالوحي للإنسان صاحب العقل الذي يتمتع بالإرادة والإختيار، حيث لا تكليف بالدين لمن لا حرية له أو إرادة له، ومن ثمة فإن العقل من أسس أو إمكانات الدين في الأمة الإسلامية، التي تثبت هذه الحقيقة التي لا يظلم بها الانسان ولا يهضم حقه وإنما تحافظ على هذا التوازن والإعتدال فيألها من شريعة سمحاء ومنهج قويم حكيم .

وهذه إحدى صور وسطية الإسلام التي كلها إعتدال وإنصاف التي اختصرها الله تعالى في كلمة تصف المنهج الإسلامي وعقيدته بدقة متناهية وبحكمة بالغة ألا وهي: ((الصراط المستقيم)) قال: ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير سورة الفاتحة: ((... وهو الطريق الواضح الذي لا إعوجاج فيه وهو دين الاسلام الذي لا يقبل الله من العباد غيره ...))⁽¹⁶⁾

لقد تميز عن باقي الأديان الأخرى التي كثر فيها الظلم والجور والتعسف، التي حولت الإنسان الى آلة ميتة وسلبته مدركات الحواس وبصيرة العقل وحولته الى آلة، وابتعدت شرائعها عن النهج السماوي الصحيح، لأنها حرفت وبدلت وشوهت عن عالم الهداية والإستقامة، لأن الكثير منها تناقلت في ظروف الاضطهاد والظلم، ينقل إلينا الدكتور "عبد العال سالم مكرم" عن السيد قطب رحمه الله قوله (17): ((إن عهدا طويلا من الاضطهاد الفضيع قد أظل اتباع عيسى عليه السلام سواء جاء هذا الإضطهاد من اليهود المنكرين أو من الرومان الوثنيين الذين كانوا يحكمون وطن المسيح ... مما اضطر الحواريين - تلاميذ المسيح - الى تناقل نصوص الإنجيل وتاريخ عيسى عليه السلام تناقلا خاطفا في ظروف لا تسمح بالدقة والتواتر ...)).

وهذه الإشارة تؤكد لنا أن الظروف التي نقلت من خلالها هذه الأديان، التي أدت الى أن استغلوا لمصالحهم وأغراضهم وأهوائهم الدنيوية، فلا شك أن تكون هناك هوة ساحقة بين الوحي والعقل، لأنهم انحرفوا وزاغت بصائرهم عن إتباع الفطرة السليمة، ولم يتمسكوا بأصل الأديان كما نزلت من رب العلمين، يقول الشيخ "محمد عبده" (18) وهو يتكلم عن - الخوارق - التي هي الأصل الأول للنصرانية يقول: ((في الإصحاح العاشر من إنجيل متى وغيره، إذا تبعت جميع ما قال الأولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات من أظهر الآيات على صحة الإعتقادات، ولا يخفى أن خارق العادة هو الأمر الذي يصدر مخالفا لشرائع الكون ونواميسه...))

هذه الإشارات تؤكد ما كان يصنع من الخوارق التي تطوى في الأناجيل المكذوبة فلا تكاد تصدق شيئا لكثرة الأباطيل التي هي من أيدي المسيحين، والتي نقلوها عن أئمتهم الأوائل، وهذه حقيقة تؤكد إبتعاد مناهجهم ودياناتهم عن الوسطية والإعتدال، وانحرفت وزاغت وأصبحت بين التنفريط والإفراط وبين الغلو والمغالات الذي ليست في الأديان السماوية من شيء، ولكنها من إبتكار عقول البشر وأهوائهم ومصالحهم الدنيوية التافهة، وما كان للأمم شرقا وغربا الا أن تستسلم للعقيدة الوحيدة التي شملت الملايين غاياتها الكبرى إصلاح البشرية وإسعاد الإنسانية ونشر القيم الفاضلة والمثل العليا ويساوي بين الأسود والأبيض وبين الغني

والفقير وبين السيد والمسود ويجمع بين ما نزل من السما وبين العقل وادراكات الحس الانساني الذي إستقام على الفطرة، يقول "عباس محمود العقاد" (19) وهو يتكلم عن مضمون ما سبق من الكلام: ((...العقيدة الإسلامية التي شملت ملايين من الخلق في عزة وشرف، بعد أن خذلتهم المعتقدات الأخرى ممن اعتصموا بها من الناس، وأن أصلح الإنسان والإنسانية في القرن العشرين أمام زخم المذاهب والإيديولوجيات هو ما إستوحوه من كتابهم (القرآن الكريم) ثم أشار الى نظرة هذه المذاهب والإيديولوجيات للإنسان نظرة مادية تعسفية في حقه، منها من جعلته كعملة - اقتصادية - في سوق الصناعة والتجارة تعلقوا وتهبط في طبقاتها بمقياس العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد ك- المادية التاريخية -، ومنها ماجعلته واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود وإن أبناء الإنسانية جميعا عبيد للعنصر السيد ك- الفاشية -، ومنها ما أفقدته إنسانيته فقالت لا وجود له وهو عبارة عن وهم الأذهان ك- العقلية - وأن الموجود هو الفرد الواحد الذي يؤثر ويتأثر ...))

لكن المنهج الإسلامي الصحيح كرم الإنسان قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي آلْبَابِ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (20) وجعله خليفة في
الأرض قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (21) لأنه
أكمل الخلوقات لما يكسبه من قدرات التي تمنحه التكيف مع الواقع طبقا لمقتضيات هذا الدين،
فلذلك شرفه او أعزها لأنها تحقق مبادئ العدل والإحسان والخير بين الأمم، مادامت تأمر
بالمعروف وتنهى عن المنكر قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (22) وضمن الكيفية التي تحقق منهج الوسطية في دعوتها
لهذه المبادئ السامية والفضائل القيمة، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَحَدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (23) وقال تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ لَهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ
الْقَلْبِ لَآتَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْبُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (24) . وقال تعالى:
﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (25) وكل هذه الآيات

الكرامة تعني معان التوازن والإعتدال في المنهج الإسلامي الصحيح وهي في حقيقتها معنى الوسطية، ففي الآية الأولى: الأمر بالمعروف مقابل النهي عن المنكر، وفي الآية الثانية جاءت الدعوة الى الله فبين كيف تكون هذه الدعوة قال: بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم في التي تليها يخاطب رسول الله خير خلق عليه الصلاة والسلام، قائلاً: لو لم يكن قلبك عطوفا رحيمًا ودعوتك حسنة ظريفة، لما استجاب أحد لدعوتك ولي نداء الله في حجتك أو برهانك، ثم جاءت الآية التي تليها تربط بين مصالح الدنيا والدين، فالتأمل في العقيدة الإسلامية ومنهجها القويم يجد أن هناك في كل شيء إعتدال وتوازن بحيث يجد شرع الله مكانته واستقراره في النفوس، كما يجد العقل متنفسًا فيما يقبله ويرضاه من أمور هذا الدين، وهكذا جمع بين مطالب الجسد ومطالب الروح أي وفق ما يقبله العقل ويقره الوحي .

إعترافات من الغرب:

ويقال الحق الحق ما شهدت به الأعداء، ها هو الغرب اليوم يدعو الى الإسلام، ويعترف بأن حضارة الغرب لم تكن عادلة في حق الإنسان بل زادت شقاوة وظلماً، لأنها لم تنظر بالأمر بحكمة وافرطت في الماديات على حساب الجانب الروحي والوجداني، وبالتالي انتهكت موازين الإعتدال والتوازن وحطمت موازين الحق والعدل، وينقل الينا الدكتور "عبد العال سالم مكرم"⁽²⁶⁾ قول الدكتور "الكسيس كاريل" "أحد عقول الغرب المشهورة، نال جائزة نوبل 1912 لأبحاثه الطبية القيمة - قال في كتابه المشهور : ((الإنسان ذلك المجهول)) ((يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء، ولكن الواقع هو عكس ذلك فهو غريب في العالم الذي ابتدعه، أنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته...)) هنا يتكلم عن الإنسان الغربي يقول: مادام الإنسان هو المسيطر والمبدع فهو المقياس، لكنه لم (ينظم دنياه)، لأنه لم يسلك الطريق الناجع السوي، واتخذ المنهج الوضعي العاجز والناقص، لأنه من إبداع البشر الذين انحرفوا الى الماديات والشهوات، ولم يقيموا وزناً للشرع الله، ثم يقول هذا الدكتور⁽²⁷⁾: ((إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً)) لما أهملوا الحقيقة التي تجمع بين النقل الصحيح والعقل الصريح انحطت أخلاقهم

وانحلت مجتمعاتهم وكثرت فيها الأمراض الفتاكة، ثم يقول الدكتور ((إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها الى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها اليها ...))، ثم يقرر حقيقة شاهدة، أن هذه الأمم التي هي متقدمة في الجانب التكنولوجي والسياسي لهي الأمم التي تتسارع الى الضعف، لأنها فقدت التوازن بين القيم الإنسانية والأخلاقية ومنهج الشريعة الصحيحة التي تسير وفق مقتضيات الحياة العقلية على الفطرة السليمة، ثم يقول الدكتور: ((أن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والإقتصادية والإجتماعية)) وهو يكمل الحديث عن إختيار المنظومات الكبرى والأساسية التي يحتاجها الإنسان في حياته وتمثل الشريان الحي للنمو في كل المجالات، وهذا الإختيار ينعكس على ما يعانيه الإنسان في المدن من قلق وهموم .

ثم يقول الدكتور ⁽²⁸⁾ وهو يتكلم عن كرامة الإنسان في الحضارة الشرقية والغربية على السواء ((... بل هي أكثر سوءا منها فليس للإنسان فيها كرامة لأنه مجرد ترس في آلة . إذا أردنا أن ننقذ الإنسانية من هذا التحلل الديني من هذه الفوضى الضاربة أطنابها علينا أن ندعوا العالم الى الحضارة الاسلامية لأنها الدواء الناجع لأمراض الحضارة المادية:)) . نلاحظ في هذا الكلام صدق التجربة التي شهدتها الغرب، وها هو أحد أبناء الحضارة الغربية يتكلم بصدق وينطق بالحقيقة، ويشهد على الواقع المر المنهار كما وصفه بنفسه، فالإنسان فقد كرامته وأصبح مجرد آلة توجه يمينا ويسارا بدون إحساس فاقدة للعقل، لماذا هذا التدهور والإختيار في البنى الضرورية لتقدم المجتمعات وأن كانت متقدمة؟: والجواب أنها لم تقم التوازن الصحيح بين مقومات الدنيا والدين، بحيث تم تبديل وتحريف شرع الله سبحانه وتعالى وإهماله، وعدم إحترام أحاسيس الإنسان وتعطيل عقله ووظيفته . فكانت النتيجة الصرخة الشديدة للهجة قوية الدلالة، تنطق بها قلوب الغربيين قبل عقولهم أن لا مخرج من هذا الا الدعوة والعودة - الى الحضارة الإسلامية لأنها الدواء الناجع لأمراض الحضارة المادية .

دعاة من الغرب الى الإسلام:

ورأينا في ختام هذه الكلمة المتواضعة أن نختتم بأقوال الغربيين، لأنهم مثال في حوض هذه التجربة الإنسانية الحضارية، وهم ممن أعلنوا للعالم بكل إخلاص وصدق تجربتهم الإنسانية بين ما شهدوه من الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية في كل ما يتصل بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، وكل الأنظمة الثقافية والإقتصادية والسياسية، فلم تخنهم ضمائرهم ولم تستخف بهم عقولهم، إلا أن يقولوا كلمة صدق وحق، يبرءون بها أمام أممهم والإنسانية جمعاء، ولو سكت ملايين من الناس عن الدعوة الى الحق المبين .

وأولها هذه الكلمة العظيمة التي نطق بها أحد أبناء الغرب وهو الدكتور "الكسيس كاريل"⁽²⁹⁾ - وكان طبيبا جراحا فرنسيا ولد (سنة 1873) نال جائزة نوبل عن أبحاث طبية عام (1912) - وقال: يصف بها قيمة وعظمة رسالة محمد الخالدة عليه الصلاة والسلام فيقول من بين ما قال: ((... فان الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة إثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا، أكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها، ومات عليها هذه الملايين الفاتنة الحصر أكذوبة وخذعة ؟ ثم يجيب عن سؤاله قائلا: ((أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدا ...)) وفي الأخير أقر وصدق بهذه الرسالة الخالدة . ثم دعى إليها الإنسانية قاطبة .

والكلمة الثانية: التي هي لا تقل أهمية في مضمونها ومحتواها عن الأولى، والتي خلصت عن تجربة صادقة ودعوة للحق أمام أباطيل المنكرين والملحددين والطاعنين لمنهج الإنسانية القويم القيم، وهو: "الكونت ليفنيكولا يافيتش تولستوي" - ولد (عام 1828) من أكبر أدباء ومفكري الروس والعالم في القرن التاسع عشر - قال⁽³⁰⁾: ((ومما لا ريب فيه أن النبي محمد كان من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها الى نور الحق وجعلها تبحر للسكينة والسلام وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء، وتقديم الضحايا بالبشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقوم به الا شخص أوتي قوة، ورجل مثل هذا جدير بالإحترام والإكرام)).

وبعد عرض هذه الدعوة الصادقة والتجربة الإنسانية خرجت بما فئة من أبناء الغرب من بين ملايين من الناس التي مازال ظلام الجهل والكبرياء والعناد يظلل قلوبها وعقولها، تحارب أقوم منهج وأصفي طريقا عرفته البشرية، ولكن مع زيع القلوب وظلاله العقول، وأنهب الحضرار الغربية والشرقية، فلا بد من تحقق قول الله تعالى من سورة آل عمران ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٨٥). تلك هي وسطية الإسلام وعدالتها واستقامة منهجها على الحق المبين التي غيرت قلوب وعقول ملايين من البشر ممن أنكروا وححدوا وشككوا وطعنوا ... في فضل وعظمة هذه الرسالة الخالدة .

ثم الدعوة إليها لإنقاذ الإنسانية من ضيق الدنيا الى سعتها الرحبة بفضل السير على الطريق المستقيم وهو: الاهتداء الى النقل الصحيح بالعقل الصريح .

الخاتمة:

وبعد هذه الأسطر المتواضعة يمكن أن نخلص الى بعض الحقائق المجسدة في المجتمع الاسلامي التي إفتقدتها المجتمعات المادية . والحضرار الإنسانية اليوم:

- 1- لقد قام المنهج الإسلامي وشريعته على دعامتين أو ركيزتين أساسيتين هما: العقل والدين
- 2- كرم المنهج الاسلام ووحيه العقل ودفعه للتفكر والتدبر، بخلاف الأديان التي عطلت جهود العقل وجعلت الإنسان الآلة دون أحساساً ووعي. وافقدته إنسانيته وأدميته .
- 3- إن إقامة هذا الكون وسننه تستحيل صيرورتها وتقدمها، بدون إحترام وتقديس العقل والدين . لأن قابلية هذا الدين والإقبال عليه انبثقت من فناعة ذاتية أساسها الإرادة في الاختيار والرغبة في اتباع المنهج الصحيح الواضح .
- 4- من سماحة الإسلام، أن الوحي لا يثبت ولا يستقر في الأرض بدون عقل وحرية إرادة وإختيار للإنسان . أي لا تستطيع أن تكلف إنسان فاقد للعقل وحرية الإرادة .

- 5- بالعقل إقتنعت الإنسانية كلها مشرقا ومغربا، بأن الشريعة الإسلامية ومنهجها، أقوى حجة وأوضح طريقا وأصفى منهاجا للإعتدال والإستقامة على الحق المبين أي الطريق المستقيم .
- 6- بفضل هذا التوازن والإعتدال بين الدين والعقل إرتقت الأمة الإسلامية وأرتقى منهاجها واتبعت شريعتها من طرف الأمام الأخرى التي سادت الدنيا بحضاراتها المادية، لكنها لم تسدها بمبادئها الفاضلة وبأخلاقها وبأديانها ومناهجها .

الهوامش والإحالات:

- (1)- سورة الانبياء . الآية: 106.
- (2)- الطبري، مختصر تفسير الطبري، مج2. اخ . الشيخ محمد علي الصابوني ود/صالح احمد رضا .ص: 476
- (3)- سورة الاسراء . الآية: 29.
- (4)- سورة البقرة . الآية: 143
- (5)- الطبري . مختصر تفسير الطبري .ص: 9/8
- (6)- لسان العرب ابن منظور . ط 1 .مج7. دار صادر .بيروت. ص: 426 (حرف الطاء) (وسط)
- (7)- سورة، الحج . الآية . 11.
- (8)- محمد الغزالي، جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج .دار الكتب .ص: 8
- (9)- محمد عبده .الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية . المؤسسة الوطنية للكتاب .الجزائر . ص: 98/97
- (10)- سورة البقرة . الآية: 72
- (11)- سورة الرعد. الآية: 3
- (12)- سورة الرعد.. الآية: 4
- (13)- سورة: الاسراء . الآية: 15.
- (14)- عباس محمود العقاد . الانسان في القرآن الكريم .مكتبة رحاب .الجزائر .ص: 43
- (15)- كتاب الحدود، سنن ابي دود، مج4، ص: 197. مصر . القاهرة
- (16)- تفسير الطبري،، اختصار الشيخ محمد علي الصابوني . و . د/ صالح احمد رضا، مج 1 .مكتبة رحاب . الجزائر . ص: 9/8 .

- (17) - عبد العال سالم مكرم. الفكر الاسلامي بين العقل والوحي. دار الشروق .ط1. بيروت.لبنان. /القاهرة. ص: 25
- (18) - محمد عبده، الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية. المؤسسة الوطنية للكتاب. ص: 20
- (19) - عباس محمود العقاد، الانسان في القرآن، مكتبة رحاب، الجزائر . ص: 8
- (20) - سورة: الاسراء : ..الآية: 70
- (21) - سورة: البقرة .الآية: 29
- (22) - سورة: آل عمران .الآية: 110
- (23) - سورة النحل ..الآية: 125.
- (24) - سورة آل عمران .الآية: 159
- (25) - سورة: القصص ..الآية: 77
- (26) - د/ عبد العال سالم مكرم .الفكر الاسلامي بين العقل والوحي .ط1. 1982 . دار الشروق .بيروت - القاهرة.: ص118.
- (27) - نفس المرجع والصفحة
- (28) - نفس المرجع والصفحة 119
- (29) - نفس المرجع السابق والصفحة: 120
- (30) - نفس المرجع والصفحة: 120